لقاءات رمضان ١٤٣٤هـ

اللقاء التاسع : تفسير الآيات ٢٠-٢٩ من سورة الأنفال

أ.أناهيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، وسمحت لهنّ الأستاذة بنشرها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تُنشر في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضا.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

لقاؤنا اليوم بفضل الله ومنّته هو اللقاء التاسع من ضمن لقاءات هذا الشهر المبارك.

وسيكون بإذن الله لقاؤنا حول هذه **السورة العظيمة سورة الأنفال**، التي ابتدأ فيها الخطاب للمؤمنين وللنبي صلى الله عليه وسلم:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ ﴾ خبر عن حال المؤمنين والجواب: ﴿ قُلِ ﴾ يعني يا محمد ﴿ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ يا أيها المؤمنون ﴿ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ ﴾ علاقاتكم بعضكم ببعض ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ وهذا الأمر العظيم الذي ستدور السورة عليه ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي أن الإيمان يستلزم منكم يا أيها المؤمنين أن تطيعوا الله وتطيعوا الرسول، وهذا الأمر بالطاعة مناسب جداً هنا، فإن الأنفال هي الغنائم التي يمنّ الله بها لهذه الأمة من أموال الكفار، وهذه الآيات نزلت في قصة بدر، أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين؛ فلأن الأمر في أوله حصل بين بعض المسلمين نزاع، كيف تقسم هذه الأموال؟ سألوا النبي صلى الله عليه وسلم كانت الإجابة من الله، أن هذه الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله، بل الواجب أن تتقوا الله وتصلحوا ذات بينكم ولا يكون بينكم تقاطع وتدابر بل يحصل توادّ وتحابّ فبذلك تجتمع كلمتكم، والأمر الجامع لهذا كله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الإيمان يدعو صاحبه لطاعة الله وطاعة الرسول، من ليس بمؤمن لا يقع منه الطاعة لله ولا الطاعة للرسول.

ثم أتت صفات المؤمنين ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلى آخر الصفات، فذكرت الصفات ثم ذكرت الغزوة وأحوال الناس في تلك الغزوة، الغزوة التي نزلت فيها الأنفال.

إلى أن نصل إلى مقصودنا من الآيات وهي الآية ٢٠ من نفس السورة، التي لازال فيها خطاب للمؤمنين، فيقول الله عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ

﴿ تَسْمَعُونَ ﴾ وهذا ذكر في بداية السورة ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إلا أن الآية هنا فيها نهي عن التولّي ﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ .

نهي ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ كيف يقولون سمعنا وهم في حقيقتهم لا يسمعون؟!

ثم يخبرنا تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ شرّ ما يدبّ على الأرض الصم البكم الذين لا يعقلون، فنفهم ماذا يقصد به في هذا السياق.

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ما المقصود بالسماع؟ أكيد أنه مقصود به المقصد الأول ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ، فانظروا إلى تكرار السماع.

الأمر الأول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾

الأمر الثاني: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الرسول يدعونا إلى ما يحيينا، المطلوب منا أن نستجيب، هناك نطيع، وهنا نستجيب.

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ إذن تصيب من؟ الذين ظلموا منكم خاصة.

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ اعلموا عن الله هذه الصفة.

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ خطاب جديد الآن .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ هذا الخطاب الثالث في هذا السياق (ينهى عن الخيانة) .

يأتي الخطاب الرابع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

إذن هذه تسع آيات، ورد فيها خطاب للمؤمنين أربع مرات، نرى كل خطاب بمتعلقاته:

أول خطاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ تتعلق به قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾، وتعلق به: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾، وتعلق به قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾. إذن هذه الآيات متصلة مع بعضها مبنية على الخطاب الأول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾.

أتى الخطاب الثاني: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ ﴾، ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾، ﴿ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾، ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ ﴾ هذه كلها متعلقة بالخطاب الثاني.

الخطاب الثالث: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾، ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ متعلّقة بها.

لآية الأخيرة: خطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ خبر عن آثار التقوى.

فهمنا مجمل الآيات، أربع خطابات في تسعة آيات، نفهم تفسيرها ونجيب على الأسئلة، وأكثر ذلك في كلام الشيخ رحمه الله

نقرأ في التفسير..

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾

قال : لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾

إذن هذا سيرشدنا أن نعود إلى الآيات السابقة؛ لأنه يقول لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين، فأين أخبر أنه مع المؤمنين؟ أخبر في الآيات السابقة وهي في قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾، وقبلها: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ والآيات السابقة فيها دلالة على أن الله مع المؤمنين ينصرهم ويؤيدهم سبحانه وتعالى، فـ **لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته،** إذن هنا تقرير مهم أن معية الله تكون بالإيمان، الله مع المؤمنين، فقوموا يا أيها المؤمنين بمقتضى الإيمان الذي تدركون به معيته سبحانه وتعالى.

فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الطاعة تكون بأي شيء؟

بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما ﴿ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾ بمعنى لا تتولّوا .

أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة اللّه، وطاعة رسوله.

﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ ما يتلى عليكم من كتاب اللّه، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال.

يعني تسمعون كلام الله وأوامره ونواهيه ثم تتولوا هذه أقبح حال يمكن أن يكون عليها الإنسان.

قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ **أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها.**

ما هي الدعوة الخالية ؟ أنهم يقولون سمعنا سمعوا بآذانهم ولكن هذا السماع لم يرشدهم إلى العمل.

فإنها حالة لا يرضاها اللّه ولا رسوله، دعوة خالية لا حقيقة لها.

فليس الإيمان بالتمنّي والتحلّي، ولكنّه ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال.

وهذا حق يقيني، الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، فالذين يدّعون السماع وهم لا يسمعون يعني سماع تدبر واتعاظ، فالمعاني ليست في قلوبهم، وسيتبين لنا هذا فيما بعد، فأصبح سماعهم بمنزلة العدم، فكأنهم ما سمعوا هذه حقيقتها، يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل، وهم لا يسمعون سماع تدبّر واتّعاظ، فلا يفهمون، فأصبح حالهم كالذي لا يسمع أصلاً.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ ﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم ﴿الصُّمُّ ﴾ عن استماع الحق ﴿الْبُكْمُ ﴾ عن النطق به.

وهنا إشارة إلى السماع والنطق، مطلوب سماع الحق ومطلوب النطق به.

﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ **ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم، فهؤلاء شر عند اللّه من جميع الدواب** التي تدب على الأرض.

لأن اللّه أعطاهم أسماعا وأبصارا وأفئدة، ليستعملوها في طاعة اللّه، فاستعملوها في معاصيه وعدموا بذلك الخير الكثير، فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية. الذين يسمعون الحق ويصلون بهذا الحق إلى رضا ربهم .

فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية، هم اختاروا لأنفسهم أن يكونوا شر البرية.

والسمع الذي نفاه اللّه عنهم، ما هو؟

سمع المعنى المؤثر في القلب، إذن أنت تسمع الكلمات بأذنك وتسمع المعاني بقلبك، فهؤلاء منفي عنهم سماع المعنى.

وأما سمع الحجة، فقد قامت حجة اللّه تعالى عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته.

وهنا معنى عظيم يجب أن نقف عنده وهو أن الله عزّ وجلّ من رحمته بخلقه أنه يعرض الحق على كل الخلق، والخلق يملكون من الأدوات التي تكفيهم لاختيار الحق، فمن كان صادقًا لإرادة الحق مقبلًا على ربه، أعانه الله، وإن كان خلاف ذلك لا يريد الحق إنما يريد العناد، يصرف الله عزّ وجلّ عنه طرق الخير، ويصبح قلبه لا يميل إلا للشر، وسيتبيّن لنا هذا أكثر في الآيات القادمة.

﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ ﴾ **على الفرض والتقدير** ﴿لَتَوَلَّواْ ﴾ **عن الطاعة** ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ **لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه، وهذا دليل على أن اللّه تعالى لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير فيه**، من هذا الذي لا خير فيه ؟

الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده، فأنت تعطيه الخير لا تجده يزكو وينمو إنما تجده يجادلك، وله الحمد تعالى والحكمة في هذا. ما المقياس؟ ستأتي الآيات الآن تبين لنا المقياس.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ **يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم**

لما تسمع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لما معكم من إيمان افعلوا، والفعل هنا هو:

وهو الاستجابة للّه وللرسول، هناك أطيعوا، هنا استجيبوا.

الاستجابة: أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه. إذن هذه عدة أمور نعدها : ما معنى استجيبوا ؟ سيتبين معنى استجيبوا إذا فهمت أن الاستجابة تأتي بعد أمر بعد خطاب، استجيبوا لله وللرسول يعني:

١-الانقياد لما أمر به هذا.

٢-والمبادرة إلى ما أمر الله ورسوله.

٣- والدعوة إلى ما أمر الله ورسوله.

٤- والاجتناب لما نهيا عنه.

٥- والانكفاف عنه والنهي عنه .

فإن أردت تجعل الاجتناب والانكفاف معاً تصبح الخامسة هي النهي عنه، المعنى: أن المستجيب يسمع الأمر ينقاد يبادر في ذلك يدعو إليه ويجتنب الذي نهى عنه وينكف ويبتعد وينهى عن ما نهى الله.

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا اللّه ورسوله إليه، هذا وصف يعني كل شيء دعاك الله ورسوله إليه وصفه أنه يحييك، هذه الفائدة الأولى من قوله ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ إذن هذا يسبب لكم الحياة، وأيضاً:

وبيان لفائدته وحكمته. فكل ما دعاكم الله إليه وصفه أنه يحييك وهذا هو فائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية اللّه تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام.

لكن أهل الكفر لا يعرفون من الحياة إلا حياة الدواب، أما أهل الإيمان يعرفون أن حياة القلب والروح تكون بعبودية الله ولزوم طاعته، ولذلك كل عمل تعمله فأنت به تكون حيًّا، صلي تكن حياً والفائدة من الصلاة الحياة، صم تكن حيًّا والفائدة من الصيام تكون الحياة، تصدق تكن حيًّا والفائدة من الصدقة أنها لك حياة، اترك الغيبة تكن حيًّا، والفائدة من ترك الغيبة أن يبقى في قلبك الحياة.

إذا اقترفت ما نهيت عنه فقد مات جزء من قلبك، فأنت تذوق الموت فإذا ذقت الموت تعطل جزء القلب، مثل ما يتعطل بصر الإنسان،مثل ما يتعطل سمع الإنسان مثل ما تتعطل بعض أطرافه، أكيد أنك تكره أن تتعطل أطرافك، إذا تعطلت قدمك فما الذي سيجعلك تسير؟! إذا تعطل سمعك ما الذي يجعلك تسمع؟!

إذن صفة كل عمل من الأعمال التي أمر الله بها أنها حياة، فإذا وفقت أن تقوم بكل عمل أمرت به فمعناه أنت تطلب لنفسك الحياة، فإذا انتشرت الحياة في قلبك وفقت أن تمارس حياتك بصورة صحيحة، كما أن بدنك لو كان حياً كله وأجزاؤه متكاملة وليست مريضة ولا مشلولة فأنت تكون في حياة دنيوية صحيحة.

إذن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ فلتكن طاعتكم من صفة الاستجابة لله وللرسول، انقادوا، بادروا، ادعوا، اجتنبوا، انكفوا، انهوا الناس عن ما نهاكم الله عنه.

قال: ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ **فإياكم أن تردّوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم**، تختلف قلوبكم عليكم فلا تستجيب .

فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء. فيكثر العبد من قول (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك)، ولذلك في الحديث الذي رواه البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كُنْتُ أُصَلِّي فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَقَالَ: ((مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾))" فالاستجابة أمر عجيب، مطلب عظيم، العبد في هذه الحال يكون غاية في المبادرة إلى الطاعة.

بمعنى لما يأتي أمر الله لا يقابل من قلبك كسل، ردّ، عدم عناية، لا تسمع أمر الله سماع من لا يعنيه الشأن، فإن الله عزّ وجلّ لما يخاطبك في القرآن بالأوامر والنواهي يراد منك من ورائها أن ينشرح صدرك لها، أن يدرك عقلك هذه الأوامر، فلا تكن مصاباً بالصمم والبكم وسلب العقل، تسمع الآيات فكأن الخطاب ليس لك! استجيب بقلبك إذا دعاك لما يحييك، لا تكسل عن أن تسمع بقلبك ما يصلحك من أعمال البر والطاعة، ولا تكن ممن يوجه له الخطاب فكأنه لا يسمع الخطاب، ولا تكن ممن سمعوا وهم لا يسمعون في الحقيقة.

إذن إذا أردت الحياة، عليك بالاستجابة لأمر الله وللرسول.

واعلم ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ فبادر واستعجل بالإجابة، فإن قلبك اليوم ليس مثل قلبك غدا وقلبك الساعة ليس مثل قلبك بعد ساعة، بادر بالطاعات، واعلم أنه ستأتي اللحظة التي ينتهي فيها وقت العمل، فيبدأ الأمر من عند السماع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ اسمع، لا تتولى بقلبك عن أمر الله وأمر الرسول، ولا تكن كالذين قالوا سمعنا وهم في الحقيقة لا يسمعون.

واعلم أن ﴿ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لا هم يسمعوا، ولا هم يأمروا، ولا هم يعقلوا، وعلامة سماعك أن تستجيب، فلا يمر عليك الأمر أو النهي أو الخبر أو الحال في كلام الله وكلام رسوله وكأنك لست أنت المعني، وتسمع الخطابات كأن غيرك هو المعني.

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أنت اسمع هذا على أنك تطلب الحياة على كل جزء من أجزاء قلبك كما أنك تطلب الحياة لكل جزء من أجزاء بدنك، وعليك السرعة في الاستجابة القلبية ومن ثم الحركة البدنية.

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فاعمل قبل أن ينقطع عنك القدرة على العمل.

﴿ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ **أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.** ولما تسمع المؤذن يقول لك (حي على الصلاة حي على الفلاح)، استجب لما يحييك، لا يراك الله كسولاً متملاً لا تستجيب لأمره، استحي أن يدعوك لما يحييك وأنت في كسل عن هذا الذي يدعوك إليه.

ولابد أن تعلم أنّ الله يحول بين المرء وقلبه، فكم من طاعة أرادها الإنسان لكنه لم يستجب لداعيها كما ينبغي، وتلكّأ، وتباطأ، وتراجع، وهو يسمع الداعي، ولا شيء يقطعه، صحة في بدن، وكمال على العقل، وقدرة على الفعل، ومع ذلك هو يتلكّأ! فاسأل المحرومين كيف حرموا؟! وكيف عن باب الله رُدّوا! والسبب هو قلة العناية والبرود وعدم السرعة في الاستجابة.

إذن هذا أمر غاية في الأهمية يجب علينا العناية به، استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهي ففيه حياتكم، لابد من الإجابة لكل ما دعا الله ورسوله إليه، فكل واحد منا إذا بلغه قول الله أو قول الرسول في حكم من الأحكام الشرعية عليه أن يتفهمه، يسمعه سماع فهم يفهمه، ويسأل عنه ثم يبادر إلى العمل كائنًا من كان، ويدعو غيره ويترك ما عداه، إذن ستُسأل يوم القيامة ماذا أجبتم المرسلين؟ فعليك بالعناية بكتاب الله وسنة النبي، وعليك بفهمها، تسمعهم سماع فهم تفهمهم وتستجيب.

بادروا بالاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها، إما بأن ينصرف القلب وقواه إلى غير الاستجابة أو بزوال القلب الذي تعقلون به بالموت، وأحوال القلب واعتقاداته وإراداته وتصرفه أمر في إدراكه خارج قدراتنا، فالله هو الذي يملكه، والله هو الذي يصرفه، فنسأل الله أن يصرف قلوبنا وخواطرنا وإدراكاتنا على ما يحب ويرضى.

وتبيّن لنا قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ وأن الله سيحشركم إليه فيجازيكم على استجابتكم التي أجبتموها وبالعكس، وعلى إساءتكم وعدم الاستجابة، يتعلق بهذا قوله تعالى:

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ **بل تصيب فاعل الظلم وغيره،** متى؟

وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره، فأنت لو كنت استجبت إلى الله ورسوله، كان من استجابتك لله ورسوله أن تنتهي وتنكف وتنهى غيرك عنه، فلما لم يحصل استجابة كما ينبغي لابد أن تعرف أن هناك فتنة ستقع لا تصيب فقط الذي يقوم بالمنكر وإنما تعم، والسبب أن الناس لم يستجيبوا لأمر الله كما ينبغي، لم ينهوا.

وتقوى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، أي: تقوى اتقاء هذه الفتنة بالنهي عن المنكر.

وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن. وهذا طبعا على حسب إمكانيات كل شخص منا، فهذا يكون في بيته، هذا يكون في متجره، هذا يكون في مدرسته، كل واحد منا ينهى ما استطاع، لكن في زمن الفتنة التي تعم ويصبح ضجيجها مليء نقول في مثل هذا الزمن وأنت تنهى هذا وتنهى هذا ولا أحد يرد نقول "اخمدوا ذكركم وأكثروا من ذكر ربكم" ، فإن اليقين أننا سنلقى ربنا وإليه نحشر، والدنيا هذه كلها سراب.

إذن الأصل أننا نستجيب وننكر على الناس ونعلمهم السنة، ونمنعهم من البدعة ونمنعهم من مخالفة سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ونأمرهم بتعظيم الله وتعظيم الرسول وتعظيم القرآن، ونفعل هذا كله ونحن نعلم أن ظلمه هذا ووقوعه في الخطأ سيعود علينا، لكن لو فعلنا هذا كله ونهينا الناس ولم ينتهوا خصوصًا في الفتن العظيمة، إذن علينا أن نحمد ذكرنا ونذكر ربنا.

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ **لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه.** ومن أجل أن تعتني وتستجيب لأمر الله ويكون منك كامل الإقبال على الله، اذكر نعمه :

﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًّا على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة

﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ **أي: مقهورون تحت حكم غيركم**

﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ **أي: يأخذونكم**. وهذا الخطاب في أصله للنبي وللمهاجرين ولكل من امتنّ الله عزّ وجلّ عليه بهذه المنّة، نعمة الحماية من الأعداء، الإيواء، هذه نعم عظيمة.

﴿ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ **فجعل لكم بلدًا تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.**

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ **اللّه على منته العظيمة وإحسانه التام، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.** بأن تستجيبوا لما أمركم، فاشكروا لله نعمه، فإنّ ربكم المنعم، والشكر يأتي من ورائه المزيد.

إذن هذان خطابان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

نأتي إلى الخطاب الثالث: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم اللّه عليه من أوامره ونواهيه.

انظر إلى التنوع حول نفس الأمر ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾، ﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾.

فإن الأمانة قد عرضها اللّه على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً، فمن أدى الأمانة، استحقّ من اللّه الثواب الجزيل.

ما هي الأمانة؟ هي الأوامر والنوهي، الآن سيكون ترك الائتمار بالأوامر، يقول:

ومن لم يؤدها بل خانها، استحقّ العقاب الوبيل، وصار خائنًا للّه وللرسول ولأمانته. معنى ذلك: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾، ﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ إذن الطاعة، الاستجابة، النهي عن الخيانة، إذا أطعت الله واستجبت لن تكن خائنًا، واذا فعلت المعاصي وما تركت إذن هذه خيانة.

وصار خائنًا لله وللرسول ولأماناته، منقصًا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات وهي الخيانة، مفوتًا لها أكمل الصفات وأتمها وهي الأمانة.

إذن ترك الإنسان ما أمر الله يسمّى خيانة، ماذا يسبب له هذه الخيانة؟ الآية التي بعدها تدلك لماذا يمكن أن يستهين الإنسان ويقع في الخيانة، يقول:

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾.

ولما كان العبد ممتحنًا بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر اللّه تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي اللّه بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطاها، وتردّ لمن استودعها.

فإذن كن حذرًا من أن تخون، ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ فلا تخونوا بسببهم وتقعوا في الحرام، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ .

فإن كان لكم عقل ورأْيٌ، فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة. والله المستعان، الله يرزقنا عقول رشد ترشدنا إلى اعلى المصلحتين.

فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم. إذن ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾، واذكروا نعمة الله ﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾، ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ فلا تجعلوها سبب للخيانة، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾.

ينتهي هذا المقطع في الخطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ أي: إن تطيعوا وتستجيبوا ولا تخونوا فتكونوا من الأتقياء سيكون لكم هذه العطايا من الله.

(إن) هذا الشرط ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ يحصل لكم ما سيأتيكم، والتقوى ستكون في طاعتنا للأوامر والنواهي واستماعنا لها، استماع استجابة، نستمع الأوامر ونستحيب، ونتقي الفتنة، فإن استجابتنا تجعلنا نقوم نحن بالعمل، وننهى غيرنا، ولا نخون، ولا نجعل محاب الدنيا تجعلنا نخون الأوامر والنواهي، نتوب إلى الله مما حدث منا، الآن إذا حققت هذا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾.

يقول: **امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب اللّه على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئًا كثيرًا، فذكر هنا أن من اتقى اللّه حصل له أربعة أشياء.** الآن كما اتفقنا التقوى إشارة إلى ما سبق.

كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها. الأربع أشياء كما نقرأها في الآية:

١. يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا
٢. وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ
٣. وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ
٤. وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ

قال: **الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.** إذن أنت تسير في الحياة قد تختلط عليك الأمور وهذه المشكلة العظيمة أن الناس وهم يقرؤون في كتاب الله يفهمون ما يخاطبون به لكن لما

يعيشون الحياة لا يعرفون كيف يترجمون ما عرفوه من كلام الله وكلام رسوله إلى واقعهم، لما يسمعون كلام المنافقين ربما مارسوها وهم لا يربطون بين الصفات التي يسمعونها وبين ما يمارسون، ربما واجهوا منافقين ما يعرفون كيف يتعاملون معهم لأنهم ليسوا متصورين أن هؤلاء فيهم هذه الصفات، ربما واجهوا مؤمنين اختلط عليهم الأمر، ربما واجهوا اختبارات ما يعرفون أن هذا اختبار.

فإذن لما يكون معك فرقان تستطيع أن تفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، من هم أهل السعادة من أهل الشقاوة، فلما يأتي أحد يكلمك عن تعدد الأديان على أنه حرية، ويبذل قصارى جهده أن يقنعك بالأمر ويجلبون عليك بخيلهم ورجلهم ويد الإعلام الخبيثة تعبث بعقول الناس، أنت يكون معك فرقان حتى لو ما معك إجابات تفصيلية على ما يقولونه اتركه، لكن في قلبك تفريق أن هذا حق وهذا باطل، وهذه هبة من الله لك، إن كنت تقيًّا تطيع الله والرسول وتستجيب ولا تخون، فإنه سيكون معك فرقان.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق، وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

إذن اتق الله وابذل جهدك وما يقع من خطأ يغفره الله لك، يغفر لك الصغائر ويكفر عنك الكبائر.

الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه. فيكون لك الفضل العظيم من الله عزّ وجلّ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

إذن معنى هذا أن صاحب التقوى سيكون له ثبات في قلبه ويكون له بصر ثاقب ويكون عنده حسن هداية فيخرج من الالتباس، ينجو من الشُبهات، والله يكفر عنه سيئاته ويغفر له الصغائر والكبائر، ويتفضّل عليه بأمور عظام، يتفضّل عليه بخيرات لا حصر لها.

فاللهم اجعلنا من الأتقياء، واجعلنا ممن أطاعك وسارع بالاستجابة، ولم يخنك ولم يخن رسولك صلى الله عليه وسلم، وكان من الأتقياء اللهم آمين.